

لَمَحَاتُ عِلْمِيَّة

وَقُطُوفُ

تَفْسِيرِيَّة

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي في
القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

لَمَحَاتُ عِلْمِيَّةٍ وَقُطُوفُ تَفْسِيرِيَّةٍ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي في
القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

المُقَدِّمَة

لا خلاف في المنهج بين مفسري اليوم للآيات الكونية ومفسري الأمس؛ سوى تجلّي بعض خفايا الخليقة بعد اكتشاف المنظار والمجهر وتطور وسائل الرصد، لتسطع البينة على أن هذا القرآن هو الحق، ولو كان مُفسِّري الأمس مُعاصرين لَسَارَعُوا إلى تفسير الآيات الكونية بالحقائق العلمية، فقد فاضت كتبهم ومن سار على دربهم بوجوه من الإعجاز في القرآن الكريم.

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِي: "كَانَ عَمْرُ بْنُ الْحَسَامِ يَقْرَأُ كِتَابَ الْمَجْسطِي عَلَى عَمْرِ الْأَبْهَرِيِّ فَقَالَ لَهُمَا بَعْضُ الْفُقَهَاءِ يَوْمًا: مَا الَّذِي تَقْرَأُونَهُ؟ فَقَالَ الْأَبْهَرِيُّ أَفْسِرُ قَوْلَهُ تَعَالَى {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا} فَأَنَا أَفْسِرُ كَيْفِيَّةَ بِنَانِهَا، وَلَقَدْ صَدَقَ الْأَبْهَرِيُّ فِيمَا قَالَ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَكْثَرَ تَوْعَلًا فِي بَحَارِ الْمَخْلُوقَاتِ كَانَ أَكْثَرَ عِلْمًا بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ"^١، والمجسطي هذا كتاب قديم في الفلك والرياضيات ألفه بطليموس حوالي عام ١٤٨م في الاسكندرية، وترجمه إلى العربية حنين بن إسحاق العبادي في عهد المأمون حوالي عام ٨٢٧م^٢، فما بالك بالمجلدات اليوم المزدانة بمفاخر الكشوف ومآثر العلوم!.

وتأتي الملامح العلمية بعفوية وتلطف لا يلفت عن غرض الإيمان، ولا مجال لاستنباط وجه علمي بمعزل عن تفهم بديع أساليب البيان، والخشية من تغير الحقائق العلمية مع الزمن حرص محمود؛ لكن الحقائق ثوابت لا تتغير مع الزمن كظلمة البحر العميق، والقول بأن الاجتهاد قد يصيب وقد يخيب صحيح؛ ولكن حرص المتضلعين بعلوم اللغة والشريعة والطبيعة كفيل بالتصويب.

والتفسير بالعلوم يُوضِّح ما انتظرته الأيام ليتجلى ويسطع ويتحقق وعد جازم: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص: ٨٧ و٨٨، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٤١ فصلت: ٥٣، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٧ النمل: ٩٣، ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ١٦ الأنعام: ٦٦ و٦٧، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠ يونس: ٣٩، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص: ٣٨ و٨٧ و٨٨.

د. محمد دودح



^١ فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٥٤١٤).

^٢ موسوعة ويكيبيديا والشبكة الدولية.



﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا
فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾
٢١ الأنبياء: ٣٠.

الفَقْرَة Paragraph

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢١ الأنبياء: ٣٠.

كَلِمَاتُ إِشْرَاطِيَّةٍ keywords

﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾، ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

تَرْجَمَة (تَفْسِيرِيَّة) Translation

All (w). Have not those who disbelieve known that the heavens and the (primitive) earth were joined together as one united piece (in the solar nebula as the last stage of division), then We parted them? And We have made from water every living thing. Will they not then believe?



لَمَحَاتُ بَيَانِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ

Eloquent & Scientific Hints



في النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الأنبياء: ٣٠؛ دلالة صريحة على أن الماء عماد الحياة وأن نشأة الماء في الأرض كانت مُقدمة لنشأة الحياة، وفيه أن بداية الحياة كانت في البحار القديمة والجداول والمستنقعات من طين؛ خاصة مع تصريح القرآن في جملة مواضع أن الإنسان نشأ من طين ومن صلصال ومن تراب؛ أي من عناصر الأرض.



والحياة على هذه الأرض لم يكن لها أن تظهر؛ لو لم يتم تصميم جميع أجزاء هذا الكون بتقدير بالغ في جميع مراحل خلقه؛ حيث أن خلا بسيطاً في تصميم مرحلة ما من هذه المراحل قد يحول دون أن تكون الأرض بالشكل والمواصفات التي هي عليها الآن، والأرض قد تم تصميمها بتقدير بالغ لكي تكون مؤهلة لظهور الحياة عليها؛ وذلك من حيث تحديد بعدها عن الشمس التي تمدها بالطاقة وسرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس وكذلك إمالة وتأرجح محورها وشدة مجالها المغناطيسي وجوها قشرتها، وعوامل أخرى كلها حُسبت بدقة متناهية تدفع الصدفة وتؤيد التقدير، وكان للماء الدور البالغ في نشأة الحياة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنبياء: ٣٠.



وتقدّر كمية الماء على الأرض بستة عشر بليون كيلومتر مكعب، ويوجد القسم الأكبر من هذه الكمية والذي يقدر بثلاثة عشر بليون كيلومتر مكعب تحت القشرة الأرضية، وصدق القائل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ٢٣ المؤمنون: ١٨، أما الكمية المتبقية والتي تقدّر بثلاثة بلايين كيلومتر مكعب فإن نصفها يدخل في تركيب الصخور والمعادن الموجودة في القشرة الأرضية بينما يوجد النصف الآخر في المحيطات والبحار والأنهار وفي المناطق الجليدية على شكل جليد، ويعتقد العلماء أن الماء الموجود على سطح الأرض قد خرج من باطنها وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ نَحَاها. أَخْرَجَ مِنْهَا مائِها وَمَرعاها﴾ ٧٩ النازعات: ٣٠ و ٣١، ولقد كان هذا الماء عند أول نشأة الأرض على شكل بخار يملأ جو الأرض الأولي بسبب ارتفاع درجة حرارة سطح الأرض، وبعد أن برد بدأ بخار الماء بالتكاثف ليسقط على شكل أمطار غزيرة لعبت دوراً كبيراً في تشكيل تضاريس الأرض كالأودية والسهول، والساند عند علماء الجيولوجيا أن المحيطات الحالية كانت محيطاً واحداً ثم انقسم إلى سبعة أبحر كبيرة مع انقسام القارة الأم إلى سبع قارات، وتقدر كمية الماء التي تسقط على اليابسة بهيئة أمطار بتسعين ألف كيلومتر مكعب تعود في النهاية إلى المحيطات والبحار؛ حيث يعود ثلاثون ألف كيلومتر مكعب منها بواسطة الأنهار بينما تعود الستين ألف المتبقية من خلال عملية التبخر.

ومكونات التراب والماء؛ أي الطين، هما أهم متطلبات الحياة، فمن التراب تستمد العناصر الأساسية لتكوين وتكاثر الخلايا الحية، والماء مذيب بدونه لا يمكن أن تتم التفاعلات الكيماوية وتصنع البروتينات وتستنسخ المادة الوراثية، وللماء خصائص فريدة تختلف عن خواص مواد مشابهة في التركيب؛ مما حدا بعالم الكيمياء الروسي إيغور بتريانوف بأن يصفه بأنه أغرب مادة في الكون في كتابه "الماء تلك المادة العجيبة"، فهو السائل الوحيد الذي يصلح لأن يكون وسطاً لحدوث التفاعلات الكيماوية بين الأيونات الموجبة والسالبة ويعمل كمذيب في أجسام الكائنات الحية، وله القدرة على الانتشار والالتصاق مما يسهل عمله، ويتميز عن سواه كسائل بفارق كبير بين درجة تجمده ودرجة غليانه، واللافت للنظر أن التفاوت في درجة حرارة معظم مناطق سطح الأرض يقع ضمن المدى الذي يكفل بقاء الماء بهيئة سائل، والماء في حالته الصلبة أخف منه في حالته السائلة على عكس جميع السوائل الأخرى، وبغير هذه الخاصية يتحول سمك كل المحيطات في المناطق القطبية إلى جليد وتموت الأحياء البحرية، فإذا تجمد سطح المحيط يشكل طبقة عازلة تحول دون تجمد ما دونها، ومياه المحيطات التي تغطي سبعين بالمائة من مساحة سطح الأرض تقوم بامتصاص كميات كبيرة من الطاقة الشمسية خلال النهار وتبثها كحرارة في الليل فتحافظ على منع التغيرات الكبيرة في درجة الحرارة بما يناسب أحياء البر والبحر، وهو شبه شفاف يسمح بمرور الضوء إلى مدى يصل إلى ألف متر في عمق المحيطات فيسمح بتكاثر الطحالب أساس سلسلة الغذاء في البحر، ويتميز بسهولة تبخره فيساعد على تكون السحب لتنتقله إلى مناطق عطشى؛ ما كان لها أن ترتوي بغير تقدير المُبدع القدير.



قُطُوف تَفْسِيرِيَّة

Interpretation picks

قال المراغي: "﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢١ الأنبياء: ٣٠؛ أي إنه يجب عليهم أن يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لا فتق فيها ولا انفصال، وهي ما تسمى لدى علماء الفلك السديم (عند تميز الأرض الأولية كآخر انفصال)..، ففتقناهما بفصل بعضهما من بعض فكان منها ما هو سماء (تلو سماء حتى كان).. منها ما هو أرض، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون بأن الرب الذي خلق كل هذا هو الذي يعبد وحده ولا يشرك به شيء، وأنه قادر على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة؟ والخلاصة إن الماء أصل جميع الأحياء..، ثم علل خلقه بما ذكر ببعض حكمه الخاصة بالمكلفين المخاطبين بالقرآن فقال: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) أي ليجعل ذلك ابتلاء واختباراً لكم فيظهر أيكم أحسن إتقاناً لما يعمل له لنفسه وللناس، ذاك أنه تعالى سخر لنا ما في الأرض وجعلنا مستعدين لإبراز ما أودعه فيها من منافع وفوائد مادية ومعنوية"^٣.



^٣ أحمد مصطفى المراغي؛ تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م (١١٢٥).

الحَقْلُ العِلْمِي Scientific Field

Biology

علم الأحياء

المَوْضُوع Subject

Creation of Living Creatures

نشأة الكائنات الحية

نُصُوصٌ مُتَعَلِّقَةٌ Related Texts

- ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَائِرُونَ﴾ ٢٣ المؤمنون: ١٨.
- ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ٧٩ النازعات: ٣٠ و ٣١.
- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢١ الأنبياء: ٣٠.

